

معالم من الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني
(القرن السابع عشر. أنموذجا).

*Features of Cultural Life in Algeria During the Ottoman Period
(17th Century as a Model)*

1- أمحمد قرّود*، جامعة الشهيد زيان عاشور، الجلفة (الجزائر)

m.guaroud@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 2024 /07/30 تاريخ القبول: 2024 /10/29 تاريخ النشر: 2024 /12/17

ملخص:

عرفت الثقافة الجزائرية خلال العهد العثماني عموما والقرن السابع عشر انتشارا واسعا للعلوم الإسلامية خاصة الفقه المالكي والتوحيد والحديث الشريف إلى جانب علوم اللغة العربية وآدابها، وبرز علماء كبار مَيّزوا القرن 11هـ. / 17 م عن غيره من قرون العهد العثماني، وشهد لهم علماء المغرب والمشرق بالكفاءة العلمية كان من أبرزهم سعيد قدّورة، عبد الكريم الفكّون، الأنصاري السجلماسي، ومنهم هاجروا للمشرق العربي وصاروا مرجعيات شرعية ولغوية مثل أحمد المقرّي، عيسى الثعالبي ويحيى الشاوي النائلي.

كلمات مفتاحية: الثقافة، العهد العثماني، العلوم الشرعية، أحمد المقرّي، عيسى الثعالبي، يحيى الشاوي النائلي، ابن الفكّون، سعيد قدّورة. القرن السابع عشر.

* أمحمد قرّود

Abstract:

During the Ottoman period in Algeria, particularly in the 17th century, there was a widespread dissemination of Islamic sciences, especially Maliki jurisprudence, theology, and Hadith, alongside Arabic language and literature. Prominent scholars distinguished the 11th century AH / 17th century AD from other centuries of the Ottoman era. Scholars from both the Maghreb and the Mashreq recognized their scientific competence. Among the most notable were Saeed Qaddoura, Abdul Karim al-Fakkoun, and Al-Ansari al-Sijlmasi. Some migrated to the Arab East and became authoritative figures in jurisprudence and linguistics, such as Ahmed al-Maqri, Issa al-Thaalibi, and Yahya al-Shawi al-Naili.

Keywords: Culture, Ottoman period, Islamic sciences, Ahmed al-Maqri, Issa al-Thaalibi, Yahya al-Shawi al-Naili, Ibn al-Fakkoun, Saeed Qaddoura, 17th century.

مقدمة

تركز اهتمام المؤرخين الغربيين وبعض الجزائريين على الحياة السياسية في الجزائر خلال العهد العثماني وأهملت في المقابل الكثير من تفاصيل الحياة الفكرية والثقافية، فالغرب بترسنة مؤرخيه صوروا لنا ذلك المشهد الثقافي على أنه خراب وأطلال، فهذا أحد ممثلي المدرسة الغربية (الدكتور شو. SHAW)، يصف لنا الحياة الفكرية في الجزائر بالتدهور الرهيب، وأن علوم أهل الجزائر لا تتعدي السحر وعلمائها لا يتعدى كونهم مرابطين، ودرأوش وسحرة، وسانده في ذلك المؤرخ (شيلير Shaler)، والمستشرق الألماني بروكلمان، ومن سار على نهجهم دعاة التغريب الذين ازدروا كل ما هو عربي وإسلامي.

لقد كتب منظرو المدرسة الغربية وفق مخططات تخدم دولهم وتمهد لهم طريق الاستيلاء السياسي والثقافي، من خلال التأكيد أن فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي كانت خرابا ثقافيا وفكريا، وجاء الغرب برسائلته الحضارية ولتحل الحضارة مكان الفراغ، إن العيب لا يكمن في مؤرخي الاستعمار بل في اعتماد الكثير من مؤرخينا على ما كتبه المصادر الغربية عن حياتنا الثقافية ودون تمحيص ولا مقارنة ولا تحليل، وإهمال المصادر العربية والوطنية، خاصة المخطوطة منها، والتي ظلت تعاني الضياع واللامبالاة في كبريات المكتبات ودور الأرشيف العالمية، كمحفوظات ما وراء البحار بأكس أن بروفانس والأرشيف الوطني الفرنسي، والمكتبة البريطانية بلندن، وخزائن الأسكوريال الإسبانية ومكتبة الفاتيكان، ودور أرشيفات استانبول.

إن التركيز على الأحداث السياسية سلبا وإيجابا، وإهمال المجهود الحضاري للشعوب يعد انتقاصا من شأنها، فالحضارة ترتكز أساسا على ذلك المنتج الفكري والثقافي للأمم، حينما يكون العلماء والمفكرون في طليعة الفعل الحضاري، ولذلك فإن التاريخ الحقيقي للشعوب. على حد قول فولتير. ليس تاريخ الحكام والملوك والبلاط بل أخبار فلاسفتهم ومفكرتهم وعلمائهم، من هذا المنطلق كان اهتمامنا في هذا العمل منصبا على أعلام المشهد الثقافي الجزائري خلال القرن 11 هـ / 17 م، مركزين على معالم من علماء مثلوا ظواهر ثقافية وعلمية، ولم يجانب الصواب من سماهم عمالقة القرن 11 هـ، من أمثال الشيوخ: سعيد قدورة، الفكون، السجلماسي، احمد المقرّي، عيسى الثعالبي والشيخ يحي الشاوي النائلي. لإعطاء صورة متكاملة عن موضوع الدراسة كان علينا طرح الإشكالية الرئيسية الآتية: كيف كانت معالم الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، وما خصوصيات القرن السابع عشر الميلادي؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات فرعية أهمها:

- ما الطابع الثقافي المميز للجزائر خلال العهد العثماني؟
- من هم أبزر علماء القرن 11 هـ / 17 م الذين مثلوا معالم للفكر والثقافة في الجزائر؟
- ما العطاء العلمي لعلماء الجزائر المهاجرين خلال هذا القرن؟

1. طابع الثقافة الجزائرية خلال القرن 11 هـ / 17 م

تعددت آراء المؤرخين حول أوضاع الجزائر الثقافية خلال العهد العثماني عموما بما فيها القرن الحادي عشر (17 م) الذي لا يختلف عن الحقبة العثمانية إلا في بعض التفاصيل كظهور بعض النوايا الفكرية، التي تركت بصماتها وميّزت هذا القرن عن غيره من القرون، بين من يراها صارت رهن فراش الاحتضار¹ من أمثال محمد بن عبد الكريم، مجاريا في ذلك ما ذهب إليه المستشرق الألماني بروكلمان الذي اعتبر أن الحياة الثقافية والعلمية في العهد العثماني ميزها الجمود والركود، وكانت خلوا أو تكاد من الأصالة

¹ محمد بن عبد الكريم، المقرّي وكتابه نفح الطيب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د.ت، ص:

والإبداع¹، ومسايرا قول (الدكتور شو. SHAW) بأن الحياة الفكرية في حالة تدهور رهيب، وأن علوم أهل الجزائر لا تتعدي السحر، وأن علمائها لا يتعدى كونهم مرابطين ودراويش وسحرة². لكن للقضية جذورها التاريخية، فقد عوّدنا المؤرخون والقناصل والرحالون الغربيون في كتاباتهم عن الجزائر عموما والعاصمة خصوصا في القرن 11هـ / 17 م بالأوصاف القاسية والصور القبيحة المنافية للحضارة في كل المجالات، وقد تغافلوا عن الحياة الثقافية في هذا القرن³، ومن النماذج التي حاولت تشويه أي لون ثقافي في الجزائر خلال تلك الفترة المؤرخ (شيلير Shaler)، الذي نفي وجود العلم والتعليم في الجزائر وادّعى أن السكان يحتقرون العلوم ويكتفون بتعلم القرآن⁴. لكن الغالبية من المؤرخين الذين تميزوا بالدراسات المعمقة للأوضاع الثقافية العربية عموما والجزائرية خصوصا في الفترة العثمانية وبالتحديد في القرنين الأولين للعهد العثماني يؤكدون أن العثمانيين ليسوا مسؤولين على تدهور الثقافة الإسلامية، وأنّ دروس الجوامع الكبيرة كانت تضاهي، بل تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق، والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها⁵. وإذا ابتعدنا عن منظوري التهويل والتهوين حول أوضاع الجزائر الثقافية خلال القرن الحادي عشر (17 م)، فإن النظرة الموضوعية تؤكد أن الثقافة العربية الإسلامية (الدينية) كانت منتشرة على نطاق واسع، وإن التعليم وإن كان في مستوياته الأولية كان من المسلمات لدى الغالبية الساحقة من الجزائريين، إذ لم يكن يوجد من لا يحسن القراءة والكتابة، وانتشرت الكتابات في الأحياء والمدن والأرياف، وحتى في المناطق

¹ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية: نقله للعربية: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط05، بيروت، لبنان، 1973، ص: 482.

² THOMAS. SHAW : Voyage dans la régence d'Alger, trad de l'Anglais pas J. McCarthy 2ème éd, Bouslama, Tunis, 1980, p. p : 85.101.

³ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط02، الجزائر، 1981، ص: 31.

⁴ ((Il est inutile de parler de l'état des Sciences à Alger : ou elles n'existent pas, ou elles sont méprisées, le Coran - est toute leur littérature...)) W. SHALE : Esquisse de l'État d'Alger, traduction par, M.X. Blanchi, Librairie L'advocaat, Paris, 1830, p : 77

⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط01 1998، ص، ص: 273، 274.

النائية¹، وكان للزوايا دورا أساسيا في انتشار الثقافة الدينية وتوريثها للأجيال في الأرياف والمدن، بل تحولت بعض المناطق إلى مراكز للثقافة في الجزائر بفضل تلك الزوايا مثل منطقة زواوة التي صارت قطبا للزوايا². تجسدت الحياة والثقافية خلال القرن 17 في مظهرها العلمي التقليدي (الرواية)³ يقصد بها العلوم الشرعية⁴ أو الدينية (النقلية)، التي تعددت مجالاتها، فمنها علوم القرآن (كالتفسير والقراءات)، متممين في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وعلوم الحديث المشتملة على الرواية والإثبات والإجازات، إلى جانب العلوم الفقهية مثل أصول الفقه، وفقه المعاملات والعبادات⁵، ورابع تلك العلوم علم التوحيد أو العقيدة التي كانت الميدان الأبرز للصراع بين الفقهاء والمتصوفة⁶، كما اهتم علماء العصر العثماني عموما بعلوم أخرى ضرورية لفهم العلوم الشرعية، مثل اللغة والنحو والبيان.

رغم ما يقال عن الحياة الثقافية فقد برز علماء أفذاذ في مختلف العلوم النقلية اشتهر بهم القرن الحادي عشر (17 م)، كان من أعلامهم عبد الكريم الفكون الثائر على اكتفاء فقهاء عصره بالنصوص وابتعادهم عن الاجتهاد الفقهي، والتي سمّاها (د. سعد الله) بالجمود العقلي لدى الفقهاء⁷، وكوكبة أخرى من العلماء الذين أسهموا في مختلف الفنون الشرعية، واستنار سماء القرن 11 هـ بعلمهم أمثال: محمد بن علي الهلول، سعيد المقري، سعيد قدورة، عبد الواحد الأنصاري وغيرهم.

¹ نفسه، ص: 274.

² محمد سي يوسف، نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني "ملتقى: الحياة الفكرية في الولايات العثمانية، تقديم: عبد الجليل التميمي، زغوان، تونس، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، ط01، 1990، ص: 195.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري (16. 20 م)، ج02، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 10.

⁴ صالح فركوس، "الباي محمد الكبير ودوره في بعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب"، مجلة الثقافة، العدد 71، (1982)، ص: 18.

⁵ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، مرجع سابق، ص: 09.

⁶ الدين ناصر سعيدوني، مهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج 04، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 128.

⁷ سعد الله، مرجع سابق، ص: 10.

إن التركيز على العلوم الشرعية في القرن الحادي عشر الهجري يستند إلى الموروث الحضاري الإسلامي¹، الذي تراكمت معارفه منذ أكثر من 10 قرون، مما جعل علماء الجزائر يشهدون إلى النقل والتقليد والحفظ وانطلاقاً من هذا الموروث الثقافي المنقول فإن المرجعية الشرعية في مختلف القضايا هو القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويخرج عن هذا الإطار بعض الاجتهادات الفقهية. لأن الفتوى الفقهية تتغير بتغير الزمان والمكان.

ما يؤخذ على الثقافة الجزائرية خلال هذا القرن هو فقرها للعلوم والفنون وعدم عنايتها بتدوين الطب والحساب والفلك والرسم والكيمياء وغيرها من العلوم وهذا القصور لا ينطبق على الجزائر فقط بل ينجس على كل العالم الإسلامي، وفي المقابل وعلى الضفة الشمالية كانت أوروبا تشهد نهضة شاملة مست مختلف الفنون والعلوم، وامتاز رواد تلك النهضة بدراساتهم لكل ما وقع تحت أيديهم، ولم يكن دور العلماء مجرد النقل، فقد عدّلوا ما أرادوا تعديله وأضافوا ما أردوا إضافته على مختلف العلوم، وبدأ التفكير الحديث من حيث التجربة والأبحاث والتنقيب للوصول للحقيقة ومن ثمة أبدعوا فأحدثوا نهضة جديدة² رغم سيادة العلوم النقلية فلم يخلو القرن الحادي عشر (17 م) من العلماء العقليين فقد برزت بعض النماذج القليلة من أمثال العالم الجزائري سحنون بن عثمان الونشريسي صاحب كتاب (مفيد المحتاج في شرح السراج) في علم الفلك والذي برع في الكثير من العلوم خلال القرن الحادي عشر، وقد جاء كتابه هذا شارحاً لكتاب (السراج) للعالم المشهور عبد الرحمان الأخضر بن بنطوسي- نواحي بسكرة - الذي كانت له مؤلفات قيمة في البلاغة والمنطق والرياضيات واعتنى بها العلماء شرقاً وغرباً، ودرست في المعاهد الإسلامية كالأزهر والزيوتونة والقرويين³.

ومن العلماء الفلكيين خلال هذا القرن محمد بن احمد الصخري الذي ألف كتاب (القلادة الجوهريّة في العمل بالصفحة العجيبة)، والذي يعود تاريخ تأليفه إلى سنة 1043 هـ / 1632 م، وكان هذا العالم مولعاً بالإشكال الهندسية ودوران الكواكب والربط بين المتغيرات الطبيعية وحاجات الإنسان.

¹ أرزقي شويثام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني: 926. 1246 هـ / 1519. 1830 م، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2005 / 2006، ص: 328.

² عبد العزيز سليمان نوار، محمد محمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1990، ص: 07، 29.

³ سعيدوني بوعبدلي، مرجع سابق، ص: 179.

طُبعت الحياة الفكرية في الجزائر خلال القرن الحادي عشر بمظهر ثقافي آخر تمثل في التصوّف¹ الذي شاع بين الفقهاء والعامة وصار ظاهرة اجتماعية في العهد العثماني، لكن التصوف والطرق الصوفية كانت قد اختلطت ممارساتها بالشعوذة والخرافات، وتنطعت الكثير من الطرق الصوفية في الدجل والدروشة، حتى وصفهم (بواي BOYER) بأن ديانتهم كانت اقرب إلى الوثنية واغلبهم مصابون بالصرع وجّهال².

إنّ ظاهرة التصوّف التي انتشرت في كل الجزائر تقريبا خلال القرن الحادي عشر لم تكن كلها سلبية فقد ظهر علماء متصوفة أفذاذ اخذوا بعلم الباطن كما اخذوا بعلم الظاهر، ودعوا إلى حياة إسلامية متوازنة، بل حاربوا الشذوذ والدجل الذي اعتمدته بعض الطرق الصوفية، كان أبرزهم عبد الكريم الفكون، الذي رفع معوله واخذ يهوي به على المنحرفين من المتصوفة³، كما وقف الشيخ يحي الشاوي وسطا ووفق بين المعقول والمنقول⁴، وظهر أعلام اخذوا بالتصوف لكنهم ابتعدوا عن الدروشة والخرافات، بل صاروا أئمة يحتذي بهم في الإنتاج الفكري والثقافي أمثال محمد أهلول والمجاي وسعيد قدورة مفتي العاصمة والشيخ

¹ لا يشهد للتصوف اشتقاق في اللغة العربية ولا اقتباس، والظاهر انه لقب، ومن قال باشتقاقه من الصفاء والصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا به، واصطلاحا هو إرسال النفس مع الله على ما يريد، ومناجاة القلب، ومحادثة الروح، والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، وحسب تعريف الشيخ الشطي: هو تصفية النفس من الرعونات، وتنقية القلب من الأدواء والأمراض الباطنية، وفي تعريف أكثر إيجازا، هو حفظ الشريعة، وحسن الخلق، وسلب الإرادة لله. ينظر. عبد القادر أحمد عطا، التصوّف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابلسي، دار الجيل بيروت، لبنان، 1987، ص: 07. ينظر أيضا. أحمد ظريف، قراءة في الرحلة، سياحة في أغوار رحلة الورتلاني، رابطة أهل القلم، الرباط، المغرب، 2005، ص: 65. أنظر أيضا. عبد القادر الشطي، حقيقة السلفية الوفية مذهب أهل الحق الصوفية، مطبعة دار هومة، الجزائر، 2002، ص: 75.

² PIERRE. BOYER : La vie quotidienne à Alger a la veille de l 'intervention française, Imp, nationale Monaco, 1964, p : 80.

³ عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص: 13.

⁴ محمد الأمين المجبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج 01، دار صادر، بيروت لبنان، د.ت، ص: 486.

عيسى الثعالبي، الذي يقول عنه عبد الله العياشي¹ (... الحائز من علم الباطن أوفر نصيب بعدما رمي في علم الظاهر بسهم قصيب ...)².

لقد وازن هؤلاء الأعلام بين الفقه الواقعي والتصوف ومثلوا منارات ثقافية وشرعية في المغرب والمشرق خلال القرن الحادي عشر، واعتبروا أن العالم الشرعي يجب أن يأخذ نصيبه من علمي الظاهر والباطن مستنديين إلى القول المنسوب للإمام الترمذي: (إن من اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق، ومن اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكره فهو زنديق³).

إن الدارس للحياة الثقافية في الجزائر خلال السبع عشر يمكنه الوصول إلى نتيجة مفادها أن العلوم ومصادرها كانت في الأساس دينية، فحلقات الدرس في المساجد والزوايا والمدارس تعني بالعلوم الشرعية ولا تهتم كثيرا بالعلوم العقلية مثل الفلسفة والرياضيات والتاريخ والكيمياء وغيرها، أما عنايتها باللغة العربية وقليل من الحساب وعلم الفلك فتدخل في صياغ العناية بالفقه والشريعة، فالفقيه يحتاج إلى قليل من الحساب لمعرفة الوراثة الشرعية، وبعض التنجيم لضبط مواقيت الصلاة والأشهر القمرية، أما الميدان الأدبي فأبرز ما يميزه قلة الانتشار من جهة وقلة الاهتمام من طرف الحكام من جهة أخرى، ويعود السبب في قلة انتشار الإنتاج الأدبي وضعف تذوقه إلى التوجه الثقافي الديني الذي كان سائدا في الجزائر

¹ أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (1037 . 1090 هـ / 1628 . 1681 م)، ولد بإقليم تافلاالت جنوب المغرب الأقصى، تتلمذ على يد أبيه محمد وأخيه الأكبر، ثم انتقل إلى فاس طالبا للعلم، ومنها قصد المشرق العربي مرتين، الأولى 1059 هـ، والثانية 1063 هـ حيث سجل كل ما شاهده ذهابا وإيابا في كتابه الشهير (ماء الموائد) المعروف باسم الرحلة العياشية، كان العياشي أديبا وفقهما ومحدثا، مال إلى التصوف، والإعراض عن الدنيا، وألف في ذلك كتاب (تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية) وافته المنية عن سن لا تتجاوز 53 سنة متأثرا بوباء الطاعون الذي اجتاح المغرب سنة 1090 هـ، 1681 م ينظر. ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص: 376، وما بعدها، أنظر أيضا. الجبرتي، مصدر سابق، ص: 195.

² عبد الله العياشي، رحلة العياشي (ماء الموائد)، وضع فهارسه: محمد حجي، الرباط، طبعة حجرية، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977، ج 01، ص: 126.

³ أحمد بشيري، علماء من المغرب العربي في الأزهر الشريف (الإمام محمد عlish شيخ السادة المالكية ومفتي الديار المصرية)، مطبعة تالة، الجزائر، 2007، ص: 68.

خلال هذا القرن، فالعلوم الشرعية كانت تغطي كل المساحة الثقافية تقريبا، أما الأدب بشعره ونثره في نظر الكثير من العلماء والفقهاء ومثقفى ذلك العصر فكان نافلة من القول والعمل.

2. من أعلام الجزائر خلال القرن 11 هـ / 17 م

عرف القرن السابع عشر قامات علمية كبيرة شكلت معالم هذا القرن حتى كادت أسماؤهم تطغى عن باقي علماء الجزائر في القرون الأخرى من العهد العثماني، وكان لولائك الأعلام دورا ثقافيا وعلميا كبيرا بلغ صداه المغرب المشرق العربيين، واخترت نماذج منهم، وذلك لا ينقص من القيمة العلمية لبقية علماء الجزائر الآخرين في هذا القرن.

1.2. الشيخ سعيد قدورة

هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم المعروف بقدورة، لا يعرف تاريخ ميلاده بالتحديد ولكنه كان أواخر القرن العاشر¹، أصله من جزيرة جربة التونسية، نشأ بمدينة الجزائر، وتتلذذ بالجامع الكبير على يد نخبة من علماء الجزائر خلال القرن 11 هـ م 17 م من أمثال: الشيخ محمد بن أبي القاسم المظماطي، نسبة إلى قبيلة مظماطة الأمازيغية² ثم انتقل إلى زاوية الشيخ اهلل³ بتونس حيث درس علوما كثيرة مثل الحديث والفقه والأصول والتوحيد والمنطق، وبعد مقتل شيخه محمد اهلل 1008 هـ / 1600 م، عاد إلى مدينة الجزائر، وواصل مشواره مع شيخه المظماطي، ثم قصد تلمسان حيث جامعها الكبير، هناك درس على يد

¹ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، مرجع سابق، ص: 160.

² مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج 01، مدن الوسط، دار الحكمة، الجزائر 2007 ص: 72.

³ محمد بن علي اهلل المجاجي (1008. 945 هـ) أصله من أشرف الأندلس الحسينيين، اشتهرت زاويته في مجاجة (نواحي الشلف) بنشر العلوم الشرعية إلى جانب المنطق، ساعده في التعليم أخوه أبو علي بن علي اهلل (المتوفى بعد 1019 هـ)، الذي قام بدور كبير في نشر تلك العلوم من بعده، اشتهر الشيخ محمد اهلل بعلوم التفسير والحديث والنحو والتوحيد والمنطق كما درّس التصوف، ينظر. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، ج 01، القاهرة، 1930 م ص: 294، أنظر أيضا. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الفنون المطبعية الجزائرية، 2007، ج 02، ص، ص: 440، 441.

الشيخ سعيد المقرئ التلمساني¹ علوما عقلية ونقلية، ومن تلمسان توجه سنة 1015 هـ / 1606 م إلى صحراء (فجيج) بسجلماسة المغربية وكانت له دروسا مع الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي محلي السجلماسي²، ومنها انتقل إلى فاس حيث اخذ على بعض علمائها، وزار إقليم توات، عاد إلى الجزائر سنة 1019 هـ / 1610 م، وهناك تولى التدريس بجامع البلاط والخطابة بجامع سيدي رمضان، وبحلول سنة 1028 هـ / 1619 م اعتلى منصب الإفتاء بالجامع الأعظم، وصار مفتيا للمذهب المالكي في مدينة الجزائر. بقي في ذلك المنصب إلى أن وافته المنية. وهي مكانة قلما يصل إليها عالم أو يحافظ عليها كل هذه المدة، إلا إذا كان ذا باع علمي كبير ومكانة اجتماعية مرموقة، ووسطا بين علماء الظاهر والباطن³.

درّس الحديث والفقه والنحو، وتلمذ على يديه نخبة من علماء القرن 11 هـ مثل الشيخ عيسى الثعالبي الذي أجازته عن جميع مروياته، وأعطاه إجازة الصوفية (3) وأخذ عنه أيضا الشيخ يحيى الشاوي والشيخ المانجلاتي⁴ وغيرهم كثير.

¹ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن عبد الرحمان بن العيش المقرئ التلمساني، ولد بتلمسان سنة 928 هـ 1522 م تميّز بتضلّعه في مختلف العلوم كالنحو والتوحيد والفقه والحديث واللغة والمنطق، وكان له باعا في العلوم العقلية كالحساب والتنجيم والطب، من شيوخه عبد الواحد الونشريسي، رحل إلى فاس، ودرس ودرّس هناك، تولى الإفتاء والقضاء بتلمسان مدة زادت عن 45 سنة، خَلَفَ بعض الآثار منها: العقيقة وهي لامية في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم، توفي بين سنتي (1010 . 1011 هـ). أنظر. محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص: 104، 105، أنظر أيضا. عادل نويس، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط01، 1971، ص: 75. أنظر. مخلوف، مرجع سابق، ج 01، ص: 295.

² أحمد بن أبي محلي السجلماسي، أديب وفقه مغربي، ناصب العداء للسعديين، وقاد ثورة ضدهم بسجلماسة سنة 1019 هـ / 1610 م، له عدة مصنفات أبرزها: سم الساعة في تقطيع أمعاء مفارقة الجماعة، توفي سنة 1022 هـ / 1613 م، ينظر. محمد حيي، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1979، ج01، ص: 33.

³ أبو عمران الشيخ، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995، ص: 437.

⁴ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي، عالم وفقه من أعلام القرن 11 هـ / 17 م مدحه ابن زاكور الفاسي عند زيارته للجزائر بقوله:

حبر الجزائر والدنيا برمتها *** من عالم العلم حتى ذاع وانتشرا.

من المفارقات أن الشيخ سعيد قدّورة كان عالما ينزع نحو الصوفية ومع ذلك كان تاجرا ماهرا، واستغل الظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به وصار من أغنياء مدينة الجزائر هذه الوضعية المميزة علميا وسياسيا وماليا ستجذب نحوه الأنظار ويكثر حاسدوه، الذين حاولوا الإيقاع به عند أبواب الدولة، واتهامه بالتصرف غير المشروع في أموال الأوقاف، فقدّم حججه الدامغة كما يقول ابن المفتي: (...) والكل عنده عليه وثائق بخط العدول الثقات، فخاب سعيهم، وظنّونهم الفاسدة¹.

تخرجت على يديه نخبة من علماء القرن 11 هـ، منهم ابنه محمد قدورة²، وعيسى الثعالبي، ويحيى الشاوي، وعمر المانجلاتي، ومحمد بن عبد الكريم الجزائري، وعبد الكريم التمنطيطي³، انصبت جهوده على التدريس لا على التأليف، ولذلك كثر تلاميذه وقلت مؤلفاته ومع ذلك فقد خلف لنا تراثا مخطوطا جديرا بالدراسة والتحقيق منه:

تقييد على العقيدة الصغرى⁴: وهو مؤلف في علم التوحيد أرجع سبب وضعه لهذا التقييد إلى استحسانه لكتاب العقيدة الصغرى وشرحها للشيخ محمد بن يوسف السنوسي.

شرح السلم المروني في علم المنطق⁵: في هذا المؤلف شرح الشيخ أرجوزة (الأخضري) بيتا بيتا، وأوضح في بداية الكتاب أن شرحه لا يعدو أن يكون مضافا لشرح مصنف الأخضري، وكتمديد لما أغفله الناظم في شرحه، ومظهرًا بذلك لمقاصده ومستخرجا لبعض فوائده.

توفي في بداية القرن الثاني عشر (1104 هـ / 1693). ينظر: مولاي بلحميسي، "الجزائر والغزو البحري في

القرن السادس عشر"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر، (جانفي 1968)، ص: 18.

¹ حسين ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمع: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 01، 2009، ص: 97.

² محمد سعيد قدّورة يقول عنه ابن زاكور، شيخ الفقه والحديث ووارث الشرف القديم والحديث، عليه يعتمد في رواية الآثار وتصحيح أسانيد الأخبار. أنظر. محمد بن زاكور الفاسي، نشر أزهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، تقديم عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967 ص: 11

³ الشيخ عبد الكريم التمنطيطي من أشهر العلماء المغاربة (وإقليم التوات) في القرن 11 هـ / 17 م درس في المغرب ثم رحل إلى المشرق العربي، وصار من علماء المالكية، وأعجب به الشيخ علي الاجهوري لإتقانه مختصر خليل، واخذ عنه الإجازة في الفقه، ينظر. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبها، ج 01، القاهرة، 1930 م، ص: 311.

⁴ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2466.

⁵ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2190.

شرح على جوهرة التوحيد للقاني¹: وجاء هذا التأليف في علم الكلام، تناول فيه تعليقات مقتضبة على بعض المؤاخذات العقدية (خاصة في صفات الله عز وجل) والتي أوردها الشيخ القاني في مصنفه (جوهرة التوحيد).

للشيخ سعيد قدّورة مؤلفات أخرى منها: نوازل تلمسانية، شرح خطبة مختصر خليل في الفقه، الأيادي على تصنيف المرادي في النحو، شرح الخزرجية في العروض.

¹ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2761. (لاحظت في المكتبة الوطنية أنه يوجد مقطع فقط من شرح على جوهرة التوحيد).

2.2. الشيخ عبد الكريم الفكون

عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون (بفتح القاف وضم الكاف المشددة)¹، ولد بقسنطينة سنة 988 هـ / 1580 م وسمي على جده، ينتسب إلى أعرق العائلات في قسنطينة (عائلة الفكون) التي أشارت إليها المصادر التاريخية كصاحب (عنوان الدراية) الذي يشير إلى (الفقون بدل الفكون)²، وهي عائلة عربية عريقة تنتسب إلى قبيلة بني تميم³، وقد أثنى عليها الشيخ المقرئ بقوله : (عائلة من دار النظام وحر الكلام...) ⁴، ومن المؤرخين من ينفي عن أسرة الفكون الانتساب الشريف ويرجعها إلى قرية فكونة بالأوراس ذات الأصول البربرية⁵، ويرجح (د. سعد الله) عراقه وشرف عائلة الفكون، ويستبعد الرأي الثاني الذي يفتقد للوقائع التاريخية، ويستند في رأيه إلى عدم نفي هذا الانتساب الشريف عن عائلة الفكون من قبل عائلة البوني (التميمية)، والتي هاجم عبد الكريم الفكون أحمد البوني (أحد كبار علمائها) (5).

كان لأسرة الفكون دورا كبيرا في دخول العثمانيين إلى مدينة قسنطينة سنة 923 هـ 1517 م، بل تحالفت معهم، وتوسّطت بينهم وبين قبيلة الذواودة المناهضين لهم⁶ ويعود لها الفضل الكبير في استقرار الأوضاع السياسية بالمدينة، وامتلكت العائلة زاوية ومدرسة وأملاك كثيرة بقسنطينة، ويعود ثراؤها إلى ما قبل

¹ العياشي، مصدر سابق، ص 206.

² أبو العباس أحمد بن أحمد الغبرتي، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويّض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط1، ص: 334. وقد حقّق من قبل من طرف، راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 280، (يشير الأستاذ راجح بونار في تحقيقه لعنوان الداراية إلى الاسم الصحيح، الفكون).

³ أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986، ص: 38.

⁴ أحمد المقرئ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق، إحسان عباس، ج 01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968، ص: 241. (مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2436).

⁵ ERNEST MERCIER, L'évolution de la famille L'afcoun, R. A, 1878, P : 215.

⁶ MOULOUD GAID, Histoire de Bejaia et de sa région, depuis L'antiquité jusque à 1954, Alger, P : 142.

العهد العثماني، ويعتبر عبد الكريم الفكون (الجد) أول من تولى وظيفة الإمامة والخطابة بالجامع الكبير وجامع البطحاء¹ في العهد العثماني.

بدأت ثقافة الشيخ عبد الكريم الفكون محلية (شبه) عصامية² بقسنطينة حيث اكتسب ثقافة متينة، واطلاعا واسعا على علوم عصره الفقهية واللغوية، كان معلمه الأول والده الشيخ محمد الفكون، كما أخذ عن علماء آخرين كثر في قسنطينة، منهم الشيخ يحي الأوراسي والشيخ محمد بن أرشد الزواوي، وقرأ على علماء مغاربة كانوا يترددون على المدينة منهم الشيخ محمد الفاسي المغربي والشيخ محمد التواتي المغربي الذي أخذ عنه العقائد والنحو والصرف، ووصفه الفكون بسبويه زمانه (1).

تصدى للتدريس منذ صغره، وناب والده في الإمامة بالجامع الكبير، وبعد وفاة الوالد محمد الفكون تولى الخطابة، والإمامة بالجامع الكبير سنة 1045 هـ / 1635 م ثم أسندت له مهمة قيادة ركب الحج، وبقي يحض بها إلى وفاته سنة 1073 هـ 1662 م.

بلغت عائلة الفكون في عهده أزهى أمجادها الدينية والدينية (سياسيا واجتماعيا وماليا)، وحضي بلقب شيخ الإسلام، بل وصلت درجة النفوذ الروحي للعائلة إلى أن اللاجئ إليها يجد حماية وأمنا مهما كان الجرم الذي ارتكبه، أو المكانة السياسية التي كان يحوزها³.

عرف بتشدهده في منح الإجازات الصوفية والعلمية، وبانتقاده للعلماء الذين يمنحون تلك الإجازات جزافا، ومع تشدهده في الإجازات فقد درس على يديه نخبة من علماء القرن 11 هـ / 17 م، واغترفوا من علوم النحو والفقه والحديث وعلم الكلام والفلسفة منهم الشيخ عيسى الثعالبي الذي قيّد مرويّات شيخه في مسنده المسمى (كنز الرواة) والشيخ يحي الشاوي النابلي الذي أخذ عنه الإجازة، ودرس عليه أيضا الشيخ بركات بن باديس المتوفى سنة 1107 هـ / 1695 م، وهو أحد أشهر علماء عصره في قسنطينة وأبو سالم العياشي الذي حجّ معه سنة 1064 هـ / 1654 م، ولم يحض بأجازته وقد ذكر أن الشيخ الفكون كان في هذه الفترة في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علوم أهل الرسوم وكان يقول إذا ما ذكر له شي من هذه

¹ سمي بالجامع الأعظم، بني سنة 430 هـ / 1039 م في مكان يسمى البطحاء، يعين إمام هذا الجامع من طرف الباي وتسند إليه مهمة إدارة المسجد والإشراف على الأوقاف. ينظر.

- ERNEST MERCIER, *Histoire de Constantine*. S. N. E. D, Alger, 1903, P. P: 216. 225.

² ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص: 353.

³ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص: 520.

العلوم (قرأتها لله وتركها لله)¹، وهو ما يعني أن الشيخ قد مال للتصوّف في نهاية عمره، وتفرّغ للعبادة بعدما ساءت الأوضاع العلمية المحيطة، ويتضح ذلك المنحى من خلال تأليفه لكتابه منشور الهداية الذي بدى فيه ناقما على أدعياء العلم، وعلى العلماء المتزلفين للسلطة الذين باعوا دينهم بشيء من الدنيا قليل، كما أزعجه كثرة الطامعين في وظيفته من أصحاب النفوذ.

رغم كل ذلك لم يتخل الشيخ الفكون عن التدريس بالجامع الكبير رغم ما ذكره المؤرخون عن انزوائه في آخر أيامه، ويبدو أن العلوم التي لم يعد يتطرق لها في أيامه الأخيرة هي علوم أهل الباطن فقط، وفي نفس الوقت قد زهد في الدنيا ومهرجتها، وتساوى عنده المدح والذم، كما يذكر الشيخ الثعالبي، بأنه لم يبال بأحد عندما خرج والي مصر وأعيانها لاستقباله وتقديم الهدايا له².

تميّز عن علماء عصره بثورته على البدع والخرافات وتصوف الدجل، ودعا إلى التصوّف الإسلامي الصحيح، القائم على العلم والعمل معا، وضرورة استخدام العقل والاجتهاد، وانتقد علماء عصره في الجزائر وفي المشرق العربي لتساهلهم في المسائل الفقهية كشرهم الدخان في المساجد، من أمثال الشيخ علي الاجهوري المصري مفتي المالكية الذي كان الدافع الأساسي إلى كتابه: محدد السنان في نحور إخوان الدخان³.

توفي الشيخ الفكون بقسنطينة بالطاعون في 27 ذي الحجة 1073 هـ / 03 أوت 1663م⁴، وخلف تراثا فكريا ضخما يزيد عن 17 مؤلفا، لا يزال جزءا كبيرا منه يحتاج للدراسة والتحقيق ومن تلك الآثار: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية: هو أبرز مؤلفاته وقد جلب له نقمة البعض ورمقته العيون بالبغض من أجله.

محدد السنان في نحور إخوان الدخان، التعريف في علم التصريف، ديوان مدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، شرح إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة⁵

¹ العياشي، مصدر سابق، ص 391.

² سعد الله، شيخ الإسلام ... مرجع سابق: ص، ص: 85، 116.

³ نفس المرجع، ص: 153.

⁴ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط01، 1971، ص، ص: 97، 98.

⁵ سعد الله، شيخ الإسلام، ص، ص: 146، 151.

3.2. الشيخ علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي.

علي بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن يحيى بن أبي يحيى بن أحمد بن السراج أبو الحسن الأنصاري السجلماسي الجزائري¹، ولد بتافلات ونشأ بسجلماسة ثم رحل إلى فاس²، واخذ عن علمائها، حيث قرأ البخاري على يد الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، والموطأ ومختصر خليل على يد أبي العباس أحمد المقرئ (1) وقرأ عليه أيضا الكتب الستة دراية ورواية، وخص صحيح البخاري سبع عشرة مرة قراءة وبحثا وتدقيق، ومرة على كتاب الكشاف ثلاثين مرة قراءة ومطالعة³.

كان بالمغرب في نهاية الثلاثينات من القرن 11 هـ / 17 م، وشهد الاضطرابات السياسية التي عرفتها البلاد نتيجة تقاتل أبناء السلطان أحمد المنصور على الملك، وصار المغرب كما يصفها الكتاني (في تفاقم أحوال وتراكم أهوال)⁴، بعدما كانت سحاء رخاء في عهد المنصور، نتيجة لتلك الأوضاع المضطربة رحل سنة 1040 هـ / 1630 م، قاصدا الحج، ودخل مصر سنة 1043 هـ / 1633 م، واخذ العلم عن مشايخها من أمثال الشيخ أحمد بن عبد الوارث البكري، والشيخ علي الاجهوري والشيخ عبد القادر بن مصطفى الصفوي.

¹ كلمة الجزائري لم نعرث عليها إلا في مصدر واحد هو خلاصة الأثر، وربما يكون توفيق المدني قد اعتمد هذا المصدر عندما شار إليها في كتابه، وذكرها أيضا محمد حجي في كتابه الزاوية الدلائية. أنظر. المحجي، مصدر سابق، ج 04، ص: 173.

أنظر أيضا. المدني، محمد عثمان باشا، ص: 66 أنظر كذلك محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية بالرباط المغرب 1964، ص: 126.

² لم يحدد تاريخ مضبوط لميلاد الشيخ عبد الواحد الأنصاري، ولا تزال حياته وخاصة ميلاده يكتنفها الغموض وتحتاج إلى إعادة بحث وتحقيق حتى تنجلي محطات هذا العالم الكبير الذي يعدّ من عمالقة القرن 11 هـ / 17 م. ينظر في ذلك. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، مرجع سابق، ص: 371. ينظر أيضا: محمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي، أحمد توفيق ج 03، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط 01، 1986، ص: 124.

³ محمد ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط 01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1972، ص: 72.

⁴ عبد الحى الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات والمعاجم والمشيوخات والمسلسلات، اعتناء: إحسان عباس، ج 02، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1982، ج 02، ص: 364.

يذكر (المحيي) أن الشيخ الأنصاري عاد إلى المغرب ووصل فاس، وبقي هناك مقيما بالجبل الأخضر إلى أن وافته المنية، لكن الوقائع التاريخية لا تجاري ما ذهب إليه، نظرا لبعد المحيي عن الأحداث، ولعدم دقة المعطيات التي استقاها آنذاك والحقيقة المتواترة أنه استقر بأسرته في مدينة الجزائر، بعد عودته من رحلة الحج بين سنوات (1045 . 1047 هـ / 1635 . 1637 م)، والتي وجد فيها ترحيبا من حاكم الجزائر آنذاك (يوسف باشا) الذي قرّبه منه. وقد وجد نخبة من العلماء على رأسهم الشيخ سعيد قدّورة وكان مجيئه فرصة علمية كبيرة لطلاب العلم، والملاحظ أن الشيخ الأنصاري رغم سمعته العلمية الكبيرة، ومزاحمته لعلماء الجزائر على منابر الخطابة وحلق الدروس فلم يجد أي تضمر أو منافسة من الشيخ سعيد قدّورة، حينما كان لا يفتي وهو في مدينة الجزائر. وتلك من شيم العلماء الكبار الذين يرون في مزاحمة العلماء لهم زيادة في الخير ونشرا للثقافة والإسلام الصحيح، ولا يستبعد أن تكون اتصالات الشيخ سعيد قدّورة بالشيخ الأنصاري هي التي شجعت على الهجرة إلى الجزائر والاستقرار فيها بصفة نهائية¹.

كان آية باهرة في شتى العلوم، درّس في فنون علمية متنوعة مثل أصول الفقه والبيان والنحو ومصطلح الحديث والسيرة والتصوف والحديث، وكان الرجل نعمة علمية قد حبا الله بها الجزائر وطلّاب العلم فيها خلال القرن 11 هـ / 17 م، وقد اقترب تعليمه من حيث المستوى والمادة العلمية المقدمة إلى مستوى ما نسميه اليوم بالتعليم العالي، ومن العلماء الذين حفظوا للشيخ الأنصاري تلك المكانة العلمية الرفيعة الشيخ عمر المانجلاتي من خلال إجازته لابن زاكور فقال فيه : (... ولقد كنت قرأت على مشايخ جلة أعلام زمن، أجلهم عندي سيدي ومولاي الذي لازمته أربع عشرة سنة نهارا وليلا في غالب الأوقات، أبو الحسن علي عبد الواحد السجلماسي الأنصاري ... أخذت عنه في الأصول والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والفقه والحديث والسير والتصوف ...)².

كان الشيخ الأنصاري على صلة وثيقة بحاكم الجزائر يوسف باشا، رغم أن الصلة بالحكام فيها مغامرة للعلماء، خاصة إذا ما ربط مصير أولئك العلماء بالحكام المعرضين للهزات السياسية وللثورات الشعبية في كل آن، وهو ما حدث له عند مساندته ليوسف باشا في حربه ضد ثورة بن الصخري، فسقوط يوسف باشا وتولي غيره سيجلب له المتاعب ويفقده الحرية في التدريس، بل يصبح خائفا على نفسه من القتل أو السجن وبعد هذا الانقلاب هام الشيخ على وجهه، وتقطعت به السبل، وتلك من نقمة السياسة التي لا

¹ عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10 هـ / 16 م، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص: 157.

² محمد بن زاكور الفاسي، نشر أزاخير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، تقديم عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967، ص، ص: 10، 11.

تعترف لذوي الفضل العلمي بفضلهم، أو كانوا من المؤيدين للحكام، أو على الأقل من المحايدين، وعلى رأي (د. سعد الله) فالجمع بين العلم والوظيفة في العهد العثماني كالمساكن مع النمر لا يدري متى يفترسه¹. درّس الأنصاري نخبة من الطلبة النجباء الذين سيمثلون أعلام القرن الحادي عشر من بينهم الشيخ عيسى النعلابي الذي (لازمه لزوم الشاخص وخدمه خدمة الراغب حتى اختص به وصار من عليّة أتباعه)²، والشيخ يحيى الشاوي الذي روى عنه الحديث والفقه، ومن تلاميذه من غير المذهب المالكي الشيخ محمد بن علي القوجيلي³ قاضي الحنفية بمدينة الجزائر. خلف تراثا أدبيا وعلميا ضخما من بين ما خطّه منه:

- تفسير القرآن الكريم.
 - الدرة المنيفة في السيرة الشريفة وهو نظم في السيرة النبوية.
 - كفاية الطالب النبيل في حل ألفاظ مختصر خليل.
 - منظومة جامعة الإسرار في قواعد الإسلام الخمس.
 - مسالك الوصول إلى مدارك الأصول (نظم).
 - اليواقيت الثمينة فيما انتهى لعالم المدينة (أرجوزة في العقائد والأشياء والنظائر).
 - تأليف في رجال البخاري، وله منظومة في الفرائض والتصوف والطب وشرح الأجرومية.
 - منحة القيوم على مقدمة ابن جروم⁴.
 - العقد الجامع للدرر اللوامع⁵.
- كانت وفاة الشيخ الأنصاري في أواخر شعبان سنة 1057 هـ / 1647 م، بمرض الطاعون في مدينة الجزائر⁶.

¹ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 02، ص: 419.

² العياشي، مصدر سابق، ص: 127.

³ شاعر من أبرز شعراء الجزائر خلال القرن 11 هـ، تولى عدة وظائف إدارية في عهد يوسف باشا، وله أشعار في عدة فنون مثل الغزل والثناء والوصف، توفي سنة 1080 هـ / 1669 م، أنظر. سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 03، ص: 204، 205.

⁴ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، مجموعة رقم: 2663.

⁵ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 3553، يوجد هذا المخطوط ضمن مجموعة، منها مخطوط (شرح منظومة ابن ابري) للشيخ الأنصاري، ضمن جراب يحمل رقم: 8900302.

⁶ المحبي، مصدر سابق، ج 04، ص: 174.

يضاف إلى أولئك العلماء الموسوعيين الثلاثة (سعيد قدورة، عبد الكريم الفكّون علي عبد الواحد السجلماسي) الذين أناروا درب المتعلمين، بل الثقافة والعلم في الجزائر خلال القرن 11 هـ / 17 م. هناك أفذاذ من العلماء الذين خلّد التاريخ ذكرهم خلال القرن الحادي عشر، ومنهم المخضرمين بين القرنين العاشر والحادي عشر أمثال الشيخ أبو عثمان سعيد المقري¹ والشيخ محمد بن علي إيهلول² ومنهم من عايش نهاية القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر من أمثال. الشيخ أحمد بن القاسم البوني³ ومحمد بن عبد الكريم الجزائري⁴

¹ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن عبد الرحمان بن العيش المقرّي التلمساني، ولد بتلمسان سنة 928 هـ 1522 م تميّز بتضلّعه في مختلف العلوم كالنحو والتوحيد والفقه والحديث واللغة والمنطق، وكان له باعا في العلوم العقلية كالحساب والتنجيم والطب، من شيوخه عبد الواحد الونشريسي، رحل إلى فاس، ودرس ودرّس هناك، تولى الإفتاء والقضاء بتلمسان مدة زادت عن 45 سنة، خلّف بعض الآثار منها: العقيدة وهي لامية في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلّم، توفي بين سنتي (1010. 1011 هـ). أنظر. محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص، ص: 104، 105، ينظر أيضا. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط01، 1971، ص: 75. ينظر. مخلوف، مرجع سابق، ج 01، ص: 295.

² محمد بن علي إيهلول المجاجي (945. 1008 هـ) أصله من أشرف الأندلس الحسينيين، اشتهرت زاويته في مجاجة (نواحي الشلف) بنشر العلوم الشرعية إلى جانب المنطق، ساعده في التعليم أخوه أبو علي بن علي إيهلول (المتوفى بعد 1019 هـ)، الذي قام بدور كبير في نشر تلك العلوم من بعده، اشتهر الشيخ محمد إيهلول بعلوم التفسير والحديث والنحو والتوحيد والمنطق كما درّس التصوف، نظر. محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبها، ج 01، القاهرة، 1930 م ص: 294، أنظر أيضا. أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الفنون المطبعية الجزائرية، 2007، ج 02، ص، ص: 440، 441.

³ ولد سنة 1063 هـ / سيرة، جمع بين الفقه والتصوف وبرع في الحديث درس على علماء بارزين منهم والده قاسم البوني، ورحل إلى المشرق العربي (مصر والشام)، وأخذ عن بعض العلماء المغاربة وخلف تراثا فكريا ضخما من الفقه والتفسير واللغة والأدب والتاريخ والجدل والطب، من أمثله: نظم الخصائص النبوية، إظهار نفائس ادخاري المهيآت لختم كتاب البخاري، نفح الروايد بذكر بعض المهم من الأسانيد، التعريف بما للفقيه من التواليف، الدرة المصونة في علماء و صلحاء بونة، إتحاف الأقران في بعض مسائل القرآن، تنوير السيرة بذكر أعظم سيرة، الياقوتة الكبرى والصغرى في التوحيد (2) وفي مجال الطب له كتاب:

3. أعلام من القرن السابع عشر هاجروا ونبغوا بالمشرق العربي

نبغ في الجزائر خلال القرن السابع عشر ثلاثة أعلام وهم حسب تسلسلهم الزمني (أحمد المقرّي، عيسى الثعالبي، يحيى الشاوي النائلي)، لكن الظروف السياسية والعلمية أجبرتهم على الرحيل نحو المشرق العربي، هناك كانت لهم إسهامات علمية كبيرة (تأليفًا وتدرّيسًا وإجازات علمية في مختلف العلوم الشرعية واللغوية) استفاد منها طلاب وعلماء المشرق العربي (مصر، الحجاز، الشام) وفي المقابل لم يستفد طلبة العلم في الجزائر من أبناء القرن الحادي عشر الهجري إلا من النزر القليل من تلك العطاءات العلمية. لمّا كان الفطاحل الثلاث في بداية حياتهم العلمية بالجزائر. قبل أن يشدوا الرحال نحو المشرق وتفتق ملكاتهم العلمية هناك.

إعلام أرباب القريحة في الأدوية الصحيحة، وله كتب مفقودة أهمها: الروضة الشهبية في الرحلة الحجازية، وعموما فإن مؤلفات الشيخ أحمد البوني تزيد عن المائة بين مختصر ومطوّل (3)، وكانت وفاته: 1139 هـ / 1726 م. ينظر. أحمد بن قاسم البوني، التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تحقيق، سعيد دحماني دار الهدى، عين مليلة، 2001، ص: 34. ينظر أيضا. سعد بو فلاقة، أحمد البوني وكتابه: التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، مجلة التراث العربي. مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العدد 93 و94 - السنة الرابعة والعشرون - آذار وحزيران، 2004.

⁴ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الجزائري، العالم الفقيه والأديب، من علماء مدينة الجزائر، أخذ العلم على الكثير من علماء الجزائر منهم الشيخ سعيد قدّورة، رحل إلى المشرق العربي ودرس على العلماء هناك مثل علي الأجهوري ومحمد البابلي ومحمد الزرقاني والنجم الغزي وغيرهم كثير، اتجه نحو الغرب الإسلامي حيث مدينة فاس سنة 1083 هـ / 1672 م، وأخذ عن شيوخ المغرب منهم الشيخ عبد القادر الفاسي، وقد أكرمه السلطان المغربي مولاي إسماعيل* ونال مكانة سامية عنده، عرف بكونه (دائرة معارف للأدب والتاريخ) وهو الشيء الذي كان يشجعه سلاطين المغرب المحبين والمتذوقين للفنون الأدبية، لم يذكر المؤرخون أن الشيخ ابن عبد الكريم قد ترك مؤلفات، وربما تكون ضمن المفقودات التي جار عليها الزمن وطواها النسيان، توفي مهاجرا بفاس سنة 1102 هـ 1692 م. ينظر: إسماعيل البغداي، هدية العرفين، أسماء المؤلفين وأثار المنصفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1992، ص: 319.

1.3. الشيخ أحمد المقرّي.

كان شهاب الدين أبو العباس أحمد المقرّي (986 هـ. 1578 م / 1041 هـ. 1631 م)¹ نابغة القرن الحادي عشر مشرقا ومغربا بلا منازع، ويطيّب للكثير من المؤرخين تسميته بعملاق القرن الحادي عشر الهجري، فقد كان عالم المغرب والمشرق، رحل المشرق العربي فسنة 1028 هـ / 1619 م هناك ألف في العلوم الإسلامية وكانت أبرز مؤلفاته إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة²، وفي علوم اللغة العربية وتاجها المزدوجة³، والسيرة النبوية وأهم تأليفه النفحات العنبرية في وصف نعال خير البرية⁴، وأرخ للأندلس في موسوعته نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب⁵، وبلغت تألفه خمس وأربعين كتابا، غالبيتها لم تحقق وكثير منها مفقود وأجاز العشرات من علماء الجزائر والمغرب وتونس ومصر والحجاز والشام، ودرّس في كبرى هيئات التدريس الإسلامية كالقرويين، والزيتونة والأزهر، والجامع الأموي، والحرمين المكي والمدني.

ذاع صيته في المغرب الأقصى والمشرق العربي وتنوع عطاءه الثقافي بين التدريس والتأليف ومنح الإجازات العلمية في فنون وعلوم الأدب والحديث والفقه والعقيدة وعلم الكلام والتاريخ وغيرها، ورغم ما كتب عن

¹ العباس بن إبراهيم السلاوي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب منصور، ج 01، ط 02، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص: 309، أنظر. ابن عبد الكريم، مرجع سابق، ص: 102.

² توجد منها نسخ مختلفة مخطوطة في الكثير من دول العالم، منها بعض النسخ التي تمكنت من الاطلاع عليها مثل: مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ح 29 (ح)، ونسخة ثانية رقم: ح 41، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 3338 / د، ضمن مجموعة من المخطوطات تبدأ من ص: 63 إلى ص: 110 نسخت سنة 1086 هـ، ونسخة ثانية بالخزانة الحسنية بالرباط رقمها: 12008 ضمن مجموعة، تبدأ من (ص: 01 إلى ص: 52).

³ مخطوط بدار الكتب القومية المصرية رقم، 4016، واطلعت عليه وحصلت على نسخة (ميكرو فيلم منه). أنظر مطلع القصيدة بالملحق رقم: 01.

⁴ مخطوط بمكتبة تطوان، رقم: 62 ونسخة أخرى بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم: 2202. باسم فتح المتعال في مدح النعال.

⁵ مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحمل رقم: 2436. وقد حققه مجموعة من المؤرخين منهم: أحمد فريد الرفاعي سنة 1936، محمد محي الدين عبد الحميد سنة 1949، إحسان عباس سنة 1968 وتجمع كل المصادر التاريخية أنه درة ما نتجه الشيخ المقرّي في المشرق والمغرب.

الشيخ المقرئ، إلا أن الرجل أكبر من أن تستوعب إنتاجه وعلمه الرسائل والكتب، ويستحق تراثه الفكري اهتماماً أكثر من الباحثين والأكاديميين حتى لا تضيع مؤلفاته بين دور الأرشيف العربية والغربية، فبعد ما يقرب 400 سنة من وفاته لم يحقق من أعماله التي بلغت خمس وأربعين سوى أربع مؤلفات - حسب اطلاعي هي (رحلة المشرق والمغرب، نفح الطيب، إضاءة الدجنة، أزهار الرياض).

2.3. الشيخ عيسى الثعالبي

أخذ الشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي (1020 هـ. 1080 هـ / 1611. 1669 م)¹ العلوم الشرعية واللغوية في الجزائر أيدي علمائها خاصة الشيخين السجلماسي الذي كان ينوب عنه في مباشرة التدريس بمدينة الجزائر وأخذ عنه إجازات متنوعة بين الرواية والإجازات التعليمية، وعند انتقاله إلى قسنطينة أخذ عن الشيخ عبد الكريم الفكون فقراً عليه بعض من موطأ الإمام مالك، وصححي البخاري ومسلم، والسنن الأربع (أبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه)²، وقرأ عليه كتب أخرى منها كتاب الشفاء للقاضي عياض، وكتاب غنيمة الوافد للشيخ عبد الرحمان الثعالبي³، وفي النظم درس عليه أصول السلمي لزروق، وقد أجازه في هذه الكتب وغيرها.

بحلول سنة 1061 هـ / 1651 م سنة خرج من الجزائر قاصدا الحج وكثيرا ما كان قصد الحج وسيلة لخروج أو هروب العلماء من سوء الأوضاع السياسية في الجزائر العثمانية. عند وصوله للمشرق العربي اجتهد اجتهدا عظيما في علم الحديث، بعدما تتبع خزائن المصنفات في مصر والحجاز، واستخرج منها غرائب المصنفات، وقيد الكثير منها وساهمت مؤلفاته بقدر وافر في دعم المشهد الثقافي العربي بالمشرق خصوصا بمكة (المسجد الحرام)، وقد اقتصرت تراثا علميا وثقافيا ضخما كان من

¹ عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين: 20. 09 م / 14. 03 هـ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، 1995، ص: 303. أنظر. رابح خيدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين دار الحضارة، الجزائر، 2002، ص: 36.

² سعد الله، شيخ الإسلام ...، مرجع سابق، ص، ص: 57، 91.

³ أبو زيد عبد الرحمان بن مخلوف الثعالبي الجزائري، ولد سنة 786 هـ / 1384 م، عالم وفقه ومحدث، أخذ عن أئمة من المشرق والمغرب، له مؤلفات كثيرة، في التفسير مثل مختصر ابن عطية، وروضة الأنوار في الفقه وكتاب معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، الأنوار المضيئة، الأذكار والعلوم الفاخرة في أحوال الآخرة، إرشاد السالك، جامع الأمهات في أحكام العبادات، الذهب والإبريز في غريب القرآن العزيز توفي سنة 875 هـ / 1471 م. أنظر. مخلوف، مرجع سابق، ج 01، ص، ص: 264، 265. أنظر. نويهض، مرجع سابق، ص، ص: 88. 90.

أبرزها كنز الرواة المجموع في درر المجازيو اقيت المسموع¹، ويعدّ درة ما أنتجه الشيخ الثعالبي في المشرق العربي، وهو تأليف في علم الحديث استوفى بذلك تواريخ غالبية الأئمة المؤلفين، وأسانيد مؤلفاتهم، وأنتج هذا الفهرس بعد عناء عظيم، ومطالعة واسعة، تطلبت منه تتبع خزائن الكتب الكبار بمصر والحجاز وتقييد غرائب المصنفات، أما في مجال الفقه المالكي فأبرز مؤلفته كان إتحاف ودود وإسعاف بمقصد محمود² وهو تأليف في الفقه المالكي، جمع فيه سلسلة فقه الإمام مالك، جمعا لم يسبقه إليه أحد من فحول أئمة المذهب.

عرف الشيخ عيسى الثعالبي بعالم المشرق والمغرب، وانصب اهتمامه على علم الحديث، فصار فارسه الذي لا يشق له غبار، وتقاطر عليه علماء المشرق لأخذ الإجازة والرواية عنه، وجلس بالحرمين الشريفين مدرسا ومفتيا. بعدما تزلّج في الفقه المالكي. حتى صار لا يفتى والشيخ الثعالبي في مكة أو المدينة، ورغم اعتكافه على الحديث النبوي دراية ورواية، فقد ألف ما يربو عن 07 كتب، وتمكن بعلمه الواسع أن يوازن بين القضايا الفقهية المطروحة على ساحة القرن الحادي عشر وأن يكون وسطا بين علماء الظاهر والباطن، وتلك هي وسطية التي حثّ عليها الإسلام في كل العصور، وقد شهد له تلميذه العياشي بأنه الأفضل بين المشاركة والمغاربة وبكثرة مؤلفاته التي رشّدت أصحاب الجهالة، ومدحه بقصيدة من 25 بيتا جاء فيها:

إذا غالبتك النائبات فغالب بفخر فحول العلم عيسى الثعالبي.
أجل الورى قدرا وعلما وفطنة وألينهم عطفًا على كل طالب.
... إمام همّام لا ترى مثله ولو ضربت جميع الأرض جم المناقب.
... وخاض بحار العلم غير مذمّم على مركب الإنصاف أنجى المراكب.
فكم صاغ من درّ يقل نظيره ولم تبدلها قبله كف ثاقب.
... هو الفذ في كل العلوم وإنه على من معالي أصلها فوق راغب.
وما قلت ذا ظنا، ولكن لخبرتي بكل البلاد شرقها والمغرب.
فكم من تأليف له يهتدى بها إلى الرشّد ممن جهله في غياهب³.

¹ العياشي، مصدر سابق، ص: 137.

² ناصر الدرعي، الرحلة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 1997. ورقة رقم: 99.

³ العياشي، مصدر سابق، ص، ص: 186، 187.

3.3. الشيخ يحي الشاوي

الشيخ أبو زكرياء يحي الشاوي النائلي الملياني¹ (1030 هـ. 1621 م / 1096 هـ. 1684 م) تلقى الأسس التعليمية الأولى بمسقط رأسه (بمليانة)، في الكتاتيب فحفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، وأخذ عن والده أبي عبد الله محمد النائلي بعض المتون في الفقه واللغة العربية، وبما أن مليانة آنذاك لم تكن تعيش حياة علمية مزدهرة، ولم يكن بها علماء بارزون، فسيضطره طموحه العلمي إلى أن يغادر مليانة متجهاً إلى زاوية أهلول المجاجي. قرب تنس. والتي اشتهرت بعلمها وعلمائها وكان طلاب العلم يقصدونها للقراءة الثانوية، قبل أن يقصدوا عواصم علمية أخرى شهد لها ذلك القرن مثل مدينتي الجزائر وتلمسان.

صار الشيخ الشاوي أبرز شخصية علمية بمدينة الجزائر خلال فترة: 1064. 1074 هـ / 1651. 1663 م، فقد توفي قبل هذه الفترة كل من الشيخين عبد الواحد الأنصاري (1057 هـ)، وسعيد قدورة (1066 هـ)، وفي نهايتها هاجر الشيخ الثعالبي نحو المشرق العربي، وتلك الظروف تجعله الشخصية العلمية الأولى التي يلجأ إليها في الإفتاء أو التدريس، وأكدت المصادر التاريخية أنه تصدر للتدريس، وامتلك من المواهب والقدرات العلمية من نحو وفقه ومنطق وحديث وبيان، ما أظهر قدرة وتمكناً من العلوم العقلية والنقلية فقدّم للتدريس، وعقد المجالس للحديث والقراءة، وشرح الكتب الستة واشتهرت مجالسه بشرح موطأ الإمام مالك، وانتفع به خلق كثير من طلبة العلم، واتسعت مجالسه العلمية، فضاهت مجالس شيوخه وذاع صيته في الجزائر حتى وصفت الشيخ بركات بن باديس القسنطيني بأنه عالم الربع المعمور².

لم تؤثّق المصادر التاريخية ما ألفه الشيخ الشاوي النائلي بالجزائر، رغم أنه صار أبرز شخصية علمية بمدينة الجزائر خلال فترة: 1064. 1074 هـ / 1651. 1663 م ويمتلك من العلوم العقلية والنقلية وقوة الحجة العلمية ما يؤهله للتأليف في مختلف العلوم الشرعية واللغوية، وفي الفلسفة والمنطق، وكانت مجالسه العلمية تغصّ بطلاب العلم الذين أملى عليهم علوم الحديث والعقائد، والراجح عندنا أنه ترك الكثير من الكتابات التي كان يدرّس بها طلبة العلم، والكثير من الرسائل العلمية التي تبادلها مع العلماء وطلبة العلم في الجزائر، لكنّ الزمن أتى عليها وما بقي منها في خزائن الزوايا أو الجوامع أتت عليها يد الإستعمار الفرنسي، التي دمرت الكنوز المخطوطة التي حوت ثقافة وتراث الجزائر قبل أن يلحق دمارها الأرض والبشر.

¹ محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج 01، دار صادر، بيروت لبنان، د.ت، ص: 486.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...، مرجع سابق، ص: 109.

انتقل الشيخ الشاوي إلى المشرق العربي سنة 1074 هـ / 1663 م، وكانت مصر الأزهر محطته الأولى، مقتنيا آثار شيوخه وقدواته العلمية (أحمد المقرّي، عبد الكريم الفكّون، عيسى الثعالبي..) وقد برز بالمشرق العربي كخليفة للشيخ أحمد المقرّي، واعترف علماء المشرق أنّه ما وفد عليهم من علماء الجزائر أذكى من الشيخ يحيى الشاوي، شهدت له علماء المشرق بالاعتقاد ونيل قصب السبق على أغلب علماء عصره، ومعاصره المحبي¹ خير من عبّر عن تلك المكانة التي وصلها في التفوّق كعالم ومدرّس، بقوله: (... هو في الفقه إمامه، ومن فمه تؤخذ أحكامه وأما الأصول فهو فرع في علومه، والمنطق مقدمة من مقدمات مفهومه، وإن أردت النحو فلا كلام فيه لأحد سواه، وإن اقترحت المعاني والبيان فهما أنموذج مزياه ... وإن جرت الحروف على لسانه وفقّ بين المعقول والمنقول ...)².

رغم أخذه بناصية اللغة العربية وتبحّره في شتى العلوم الشرعية، فقد كان يستعمل عقله وذكائه في حل الكثير من الإشكالات الفكرية واستنباط الحلول الفقهية والعقدية للقضايا الشائكة (أنستطاع خلال أحد عشر سنة التي أقامها بالمشرق العربي أن يمنح إجازات علمية للكثير من علماء المشرق والمغرب، وأن يتصدّر مجالس الفتوى والتدريس في الأزهر والجامع الأموي ويؤلف سبع وعشرين كتابا في مجالات علمية متنوّعة أبرزها العلوم الشرعية ككتاب المحاكمات بين أبي حيّان وابن عطية والزمخشري³ وهو تأليف في التفسير أنجزه بمصر، وجمع فيه اعتراضات أبي حيّان الأندلسي من خلال كتاب تفسير البحر المحيط، على تفسير ابن عطية المسمى: المحرّر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، والزمخشري صاحب تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ويعد تأليف توكيد العقد فيما أخذ الله

¹ محمد الأمين المحبي (1061.1111 هـ / 1651.1699 م) كان اسما لامعا في سماء الشام أحاط بعلوم وفنون كثيرة مثل التفسير والفقه والنحو والفرائض والحساب والمنطق كما كان أديبا لامعا، جمع علومها كثيرة من خلال رحلته لمصر والقسطنطينية، أتقن الفارسية والتركية إلى جانب العربية، اشتغل بالتدريس والقضاء في دمشق لسنوات طويلة. ينظر. ليلى الصبّاغ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، محمد الأمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، سوريا، ط01، ص، ص: 41، 65.

² المحبي، مصدر سابق، ج 04، ص: 487.

³ مخطوط بالمكتبة الأزهرية، رقم، 593، (رافعي) 26641، نسخة أخرى للمخطوط بمعهد إحياء المخطوطات، بمكتبة جامعة الدول العربية بالقاهرة، رقم: 259.

علينا من العهد¹ أبرز مؤلفاته في العقائد، أما في مجال في مجال علوم اللغة العربية وقد أخصيت له خمسة مؤلفات أهمها : رسالة في أصول النحو، حاشية على شرح المرادي، شرح على التسهيل لابن مالك² وهو نظم شرح فيه ألفية ابن مالك في النحو، وأبدع في تصحيح بعض القواعد النحوية منها تصحيح بيت في باب (أن الناصبة) عند قول الناظم :

وإن تخفف (أن) فاسمها استكن *** والخبر اجعل جملة من بعد (أن).

فأصلحه الشيخ الشاوي بقوله:

وإن تخفف (أن) فاسمها حذف *** والخبر اجعل جملة كما وصف³.

إنّ ما قلناه عن مؤلفات الشيخين المقرئ والثعالبي تنطبق على ما ألفه الشيخ الشاوي، فلم يحقق منها سوى القليل وتنتظر المخطوطات في دور الأرشيف العربية والإسلامية والأوروبية تنتظر همما جزائرية تعيد لها الاعتبار.

خاتمة

ما يمكن أن نخلص إليه من هذه الدراسة للواقع الثقافي في الجزائر خلال القرن 11 هـ / 17 م يمكن أن نجمله في المحطات التالية:

أن العثمانيين لم يحملوا معهم مشروعاً ثقافياً إلى الجزائر ولم يعتنوا بالثقافة كعنايتهم بالحرب، وفي نفس الوقت لم يشكّلوا عائقاً في وجه استمرار الحياة الثقافية الإسلامية بالخصوص. إن القرن الحادي عشر (17 م) أنجب كوكبة من العلماء منهم (سعيد قدورة، ابن الفكون، السجلماسي، المقرئ، عيسى الثعالبي، الشاوي النائي)، وكتبوا في مختلف المجالات الشرعية والأدبية وحتى العلمية، لكنهم لم يجدوا المؤسسات العلمية التي تتكفل بهم أو تتفتق بها مواهبهم، مثل ما كان لجيراننا (جامعة الزيتونة والقرويين) أو للمشاركة (الأزهر والجامع الأموي أو الحرمين)، وهذا ما جعل نخبة العلماء إن لم

¹ مخطوط بالهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة رقم: 833، ينظر الملحق رقم: 02، وقد وقفت على نسخة ثالثة بالخزانة الملكية بالرباط تحمل رقم: د. 2343 / ق 967.

² مخطوط بالمكتبة الأزهرية، علوم النحو، رقم: 316867، (شرح منظومة لا إله إلا الله).

³ عامر محفوظي، تحفة السائل بباقة من سيدي نائل، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 155.

تمهاجر تفكر دائما بالهجرة، لأنه في نظر البعض منهم أن الجو الثقافي والسياسي الذي كانوا يعيشونه لا يساعدهم على الاستقرار والإنتاج الثقافي.

حركة التأليف كانت كبيرة ومنتشرة في كل الجزائر خلال القرن الحادي عشر وان طغى عليها الطابع الديني، فالعالم الذي ينتج عشرات المؤلفات في مثل تلك الظروف التي تسمى (غير ثقافية) يعد مبدعا بكل المقاييس، أضف إلى ما سبق أن المئات من المؤلفات والمخطوطات، أتى عليها الإهمال والنسيان، ولا تزال الكثير من مؤلفات مشاهير علماء القرن الحادي عشر مفقودة، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن الحكم على الحياة الثقافية في هذا القرن أو في غيره من قرون العهد العثماني تحتاج إلى إعادة نظر، ودراسة متأنية لإظهار حقيقة الحياة الثقافية.

إن النظرة التقليدية إلى الحياة الثقافية الجزائرية إبان العهد العثماني على أنها حياة ركود وجمود فكري تحتاج إلى إعادة نظر وإلى بحث ودراسة انطلاقا من الكنوز المخطوطة بالدول العربية والأرشيف العثمانية والتي لم تأخذ حقها من الاستقراء والبحث العلمي الأكاديمي، بعيدا عن آراء أولئك المنتسبين للمدرسة التاريخية الاستعمارية الغربية الذين تناولوا الثقافة الجزائرية في العهد العثماني بطريقة أقل ما يقال عنها أنها غير موضوعية.

قائمة المراجع

قائمة المصادر المخطوطة

المقري أحمد، إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: ح 29 (ح).
المقري أحمد، فتح المتعال في مدح النعال، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم: 2202.
قدّورة سعيد، تقييد على العقيدة الصغرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2466.
قدّورة سعيد، شرح السلم المرونق في علم المنطق، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 2190.
الشاوي يحيى، توكيد العقد فيما اخذ الله علينا من العهد، مخطوط بمكتبة جامعة الرياض، قسم المخطوطات، رقم: 3964.

قائمة المصادر المطبوعة باللغة العربية

ابن المفتي حسين، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، جمع: فارس كعوان، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 01، 2009.
المحبي محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر بيروت، لبنان، دون تاريخ.
المقري أحمد، رحلة المقري إلى المشرق والمغرب، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة، والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر، 2004.
المقري أحمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968.
العياشي أبو سالم عبد الله، رحلة العياشي (ماء الموائد)، سعيد الفاضلي، سلمان القرشي، ط 01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006.
الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987.

المصادر باللغة الأجنبية

de Paradis Venture, **Tunis et Alger au XVIIIe Siècle**, bib Arabe Sindbad, Paris, 1983.
Knight .F.A, **relation of seven years slavery under the Turkes of Algere ,suffered by an English captive merchant** , London , 1640.
Shaler. W, **Esquisse de l'État d'Alger**, traduction par, M.X. Blanchi Librairie l'advocaat, Paris, 1830.

قائمة المراجع باللغة العربية

- ابن عبد الكريم محمد، المقرئ وكتابه نفح الطيب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1973.
- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- هلال عمّار، العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية، فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (1403 هـ)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.
- الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الفنون المطبعة، الجزائر، 2007.
- محفوظي عامر، تحفة السائل بباقة من سيدي نائل، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006.
- مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، 1930.
- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط01، بيروت، 1971.
- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المجلد الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، دار الغرب الإسلامي، ط01، بيروت لبنان، 1998.
- سعيدوني الدين ناصر، البوعبدلي مهدي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج 04، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999.
- الصبتاغ ليلي، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول، محمد أمين المحجي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، الشركة المتحدة للتوزيع، ط01، دمشق، سوريا، 1986.
- رابح خيدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، 2002.
- الشيخ أبو عمران، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية

De Grammont Henri, **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)** **présentation de lemnouar Merouche**, Eds. Bouchène, Paris, 2002.

Layer Ernest, **Confréries religieuses musulmanes et marabouts, leur état et leur influence en Algérie**, Imp. Gagniard. Lyon. 1916

Merouche. L., **Recherches sur L'Algérie à L'époque Ottomane : I. Monnaies, prix net revenues : 1520 – 1830**, Éditions Bouchène, Paris 2002.

الرسائل الجامعية

لزعيم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية (1245. 924 هـ / 1518. 1830)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف الدكتور: محمد بن معمر، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، 2005 / 2006 م.

سميرة نساعد، أدب الرحلات الحجازية النثرية في الجزائر من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الهجري، (17، 19 م)، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة الجزائر، كلية الآداب واللغات، 2001. والآثار 2007 / 2008.

غماري مصطفى، المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري للشيخ يحيى الشاوي، رسالة دكتوراه في الأدب، إشراف الدكتور: زبير سعدي، جامعة الجزائر كلية الآداب واللغات، 1998.

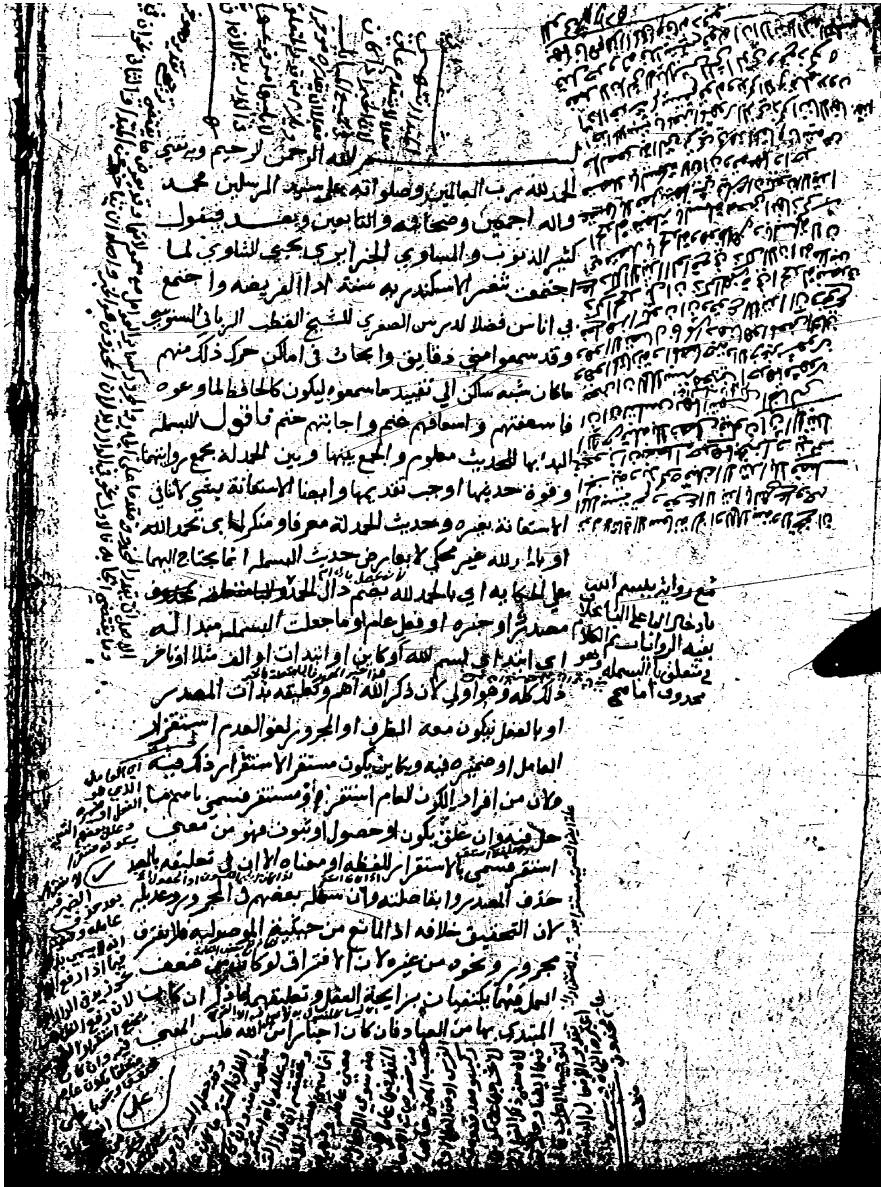
الملاحق

الملحق 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَتَعَيَّنُ
 أَتَمَدُّ مَنْ قَدْ أَطْلَعَ الْبَهْمَا لَا
 بِدَّرَ عَلَى عَرْشِ السَّمَا تَعَالَى
 وَرَأَى مِنْ عَذَابِهَا الْكَمَالَ
 بِهَالِكَةٍ فَإِنْ تَرَى زَوْجًا لَا
 أَحَدُهُ وَهُوَ وَلِيُّ الْمَحْدِ
 مُصَلِّيًا وَاللَّهُ مَا تَرْجَا
 أَفَاحَ زَهْرًا وَاضِعًا وَقَلْبًا
 وَمَا حَلِي تَعْرَا وَمَا تَبْلُجَا
 طَوْرَةً صَبَحَتْ أَذْيَالُ الدَّجَا
 عَلَاجِبِ اللَّهِ مِنْ مَعْدِ
 وَيَعْدُ فَا لِحَبِيبِ النَّفْسِ
 وَلَطْفِ طَبْعِ فِي الْحِجَا وَالْحَسَنِ
 وَالحَمْدُ لِسِرِّهِ كَالْمَحْدِ
 فَإِنْ تَشَاقَقَ عِنْدَ بَعْدِ
 أَوْ نِعْمَةً أَوْ نِعْمَةً أَقْرَبِ
 تَأْتِسُ النَّفْسُ بِهِ وَتَعْطِبِ
 فَتَجُوزُ نَزْعُ كَسْبِهِ وَالطَّرْدِ
 عَمَّ مَلِكِ الْأَحْرَارِ لِلْعِبَادِ
 وَحَكْمِ الطَّبَاعِ أَلَمِ الْأَسَادِ
 وَابْتِغَايِ الْعَمَلِ بِعَيْنِ الرَّشَدِ
 فَانْظُرْ إِلَى قَبَسِ وَمَا قَدْ كَلِمِي
 وَتَوْبَةِ الَّذِي يَنْتَسِمِ الْبَاسِ
 وَادْكُرْ كَيْفَ أَوْ بَشَرِهِ
 وَمَعَ ذَلِكَ أَتَامَهُ مَوَاسِمُهُ
 وَتَعَانِ طَبِيعُهُ بِوَأَسِمِهِ
 وَهُوَ لِكُلِّ مَا بَشَرُهُ حَاسِمُهُ
 مَا حَلَّ قَطُّ فَلَيْتَ نَدَى وَشَدِيدِ
 وَلَمْ تَزِنْ مَزِيلَةً بِالسَّيْرِ
 مَا قَلَّدَ الْخَيْرُ نَزْعُ الدَّرِّ
 وَالْعَبْدُ لَا يَحْوِي خِصَالُ الْخَرِّ
 وَالْكَلْبُ لَا يَتَّبِعُ صَوْرَ الْفَخْرِ
 وَالصَّدِّ

وجه الورقة الأولى من مخطوط: المزدوجة. للشيخ أحمد المقرئ.

وجه الورقة الأولى من مخطوط: توكيد العقد فيما أخذ الله علينا من العهد، للشيخ يحيى الشاوي



الثاني

المصدر: الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة، رقم: 833.